

الصور في اللغة الموسيقية

« اننا في حاجة لاستعارة صور من عالم المراثيات لنستمع بهاعلى
التعبير عن الحنى » (ارسطو)

العلامات المعبرة التي سبق التنويه عنها هي علامات طبيعية اذ تنبعث من تلقاء
نفسها عقب العواطف والادراك وتوجد خلافا تعرف بالصور تحدث هي أيضاً
الالهام والملاحظات ولكن الهامها مثقف وملاحظاتها دقيقة معرزة بالمقارنات
فليست اذن بتقليد رأسي أو وقتي للطبيعة اذ يهيم عليها فن تتحكم فيه غالباً
الاهواء . وقد تكون أحياناً من نتائج التصور المحض ولا يرجع سبب وجودها إلا
لاستعمال اصطلاحي

وبدراستها نهجر منطقة الفيزيولوجيا مع ظواهرها ونواميسها لنزدق النظر في قوة
فلسانية يصعب اظهار طريقة عملها لتغير نتائجها الا وهي ارتباط الفكر . وسيعيننا
في هذا المقام الكلام البليغ على فهم اللغة الموسيقية

اننا لا نعرف الشعور والفكرة الا بطريقتين : دراسة تعبيرهما الفيزيولوجي
ومعرفة الوجدان ولكن التعبير الفيزيولوجي ما هو الا نتيجة الانفعال وليس
بالانفعال نفسه . والوجدان عمل بسيط وحيد لا يستطاع تمثيله أو تقليده

اذن ما هي الفكرة والشعور باعتبارهما الذاتي ؟ اننا لا نستطيع ان نعبر عن
حقيقتيهما وكل بيان لهما نراه مناقضاً للآخر لأنها اشياء غير مادية

يأتي التصور لاغائتنا في حالة عجزنا هذه بان يجعلنا نسند الى العواطف والفكر
أشكال الاشياء المادية . وهذا الاسناد الالهامي يحدث في الكلام الاعتيادي
عدة صيغ تضاردي في الازدياد والتكاثر لدرجة لانهاية لها في الكلام الفني
(الموسيقى)

ربما استغرب القارئ أو استهجن الاوصاف الآتية التي يسند بها علماء
البسيكولوجيا الى الفكرة ولكن الغاية تبرر الوسطة وما هي الا وسائل يستعان بها

عل فهم الفكر. قترام يعبرون الفكرة وزنا فيقولون فكرة ثقيلة وخفيفة ويعبرونها
لونا فيقولون فكرة قائمة وسوداء وصافية . ويعبرونها ابعاداً فيقولون فكرة عريضة
وضيقة ومرفعة وعميقة وسميكة ويعبرونها خاصية المتانة فيقولون فكرة متينة
وينسبون اليها مذاقا فيقولون فكرة حلوة ومرة وتافه . ويعبرون الشعور حرارة
فيقولون قلب بارد وحار

وهذا الاتفاق الالهامي ذو التأثير العظيم في لغات الامم هو منبع الانشاء
الشعري ولولاه لاقتصر الشعراء على تبيان أسباب العواطف ونتائجها وأحجموا
عن تصوير العواطف نفسها

يستطيع (راسين) ان يظهر لنا نتائج حب (فيدر) وجميع الحوادث التي سببها
ولكنه حينما يريد ان يكشف الغطاء ويزيل الحفاء عن شعورها يستعمل هذه الصيغة
« اشعل الله في احشائي نارا لا تبقي ولا تذر » (راجع سيرة فيدر في بلاغة
الغرب)

وان تعدد الرموز المتناهي المستعملة في تمثيل الحب تكاد تضحكننا اذ تظهر
عجز الكتاب عن تعيين شيء غير مادي مثل قول (تييوفيل جوتييه) عن المراهقين
بان (نقوسهم كلون اللبن) ولكن ذلك العجز ولو انه لا يضر بالعمل الفني فانه
يوجد صعوبة ما يمكن للناظر ان يري فيها أصل الاسلوب الشعري وحالته . ومن
هنا تظهر خصيصة الكلام الذي يخاطبنا به وفضله في الابتداع وأهميته

وحينما يمد الشاعر نفسه غير قادر على اظهار النفس يضطر لان يبحث عن
طرق غير رأسية وتشبيهات ليكشف عنها الحجب فالصور هي سر الكلام
وروحه .

فلنتقارن بين شاعرين مثل (شكسبير) و (راسين) دون أن نرجع الى البراهين
النظرية . فكلا الشاعرين يعرف قلب الانسان . ألم يك (شكسبير) أكثر
شاعرية بالنسبة لغزارة الصيغ الطلية التي وجدها التعبير عن عالم الخيال ؟ وان

نزعنا الصور من (هوميروس) و (بيندار) و (إشيل) فماذا يبقى ؟ لا يبقى إلا رواية وأخلاقيون لا شعراء

فالموسيقى يسير غالباً على النهج الذي يتبعه أهل الادب ولا يجري على أثره لينثي. استعارة ما وينمقها كما يقع ذلك لبعض المصورين الذين لا يجيدون . وانه ليخضع لنفس ميول التصور ونزعاته في عمل مستقل في نفسه ولو ان بينه وبين غيره صفات مشتركة به فهو أيضاً يريد أن يعبر عن النفس لاعتن ظواهرها الخارجية كالحفار والمصور والممثل بالاشارات والراقص بل عن النفس ذاتها . وحيثما لا يستطيع التعبير عن شيء خفي غير مادي ولا محسوس لاصوت له ولا لون يعتمد الى معادلات اصطلاحية وتشبيهات بنسبتها الالهام بين الاشياء الحقيقية والفكرة . وفي بعض الاحيان لا يجد له مناصاً من ذلك

مثال ذلك انه اذا أراد أن يعبر عن عواطف بدلاً من أن تكون ظاهرة ومثلة بالصوت والاشارة فإنها بالعمكس لا نتيجة لها الا السكوت والسكون وتأملات الفكر فيجد الفتى نفسه مضطراً لان يعبر الطبيعة حركة وقت سكونها ولهجة عند بكها . ووقماً تعوزه ملاحظات الكلام الطبيعي يركن الى تصويره ويفرض ان الحياة العقلية المبعدة في أعماق النفس نجسنت في أشكال محسوسة وينثي . من موضوع ببيكولوجي محض موضوعاً وصفيًا يشمل الصور والالوان . والرموز التي تنتج هي من أهم المناظر التي لم تبن تماماً في اللغة الموسيقية

يريد الآن ان نأتي ببعض أمثلة للصور في الشعر وأخرى في الموسيقى لنعرف وجه تشابههما في التصوير

نشاهد في رواية (فوست) ان عواطف الدكتور فوست وهو في غرفة عمله من هموم وأحزان وضعف عزيمة وشقاء نفس وآلام أدبية قدمثلت بصورة مستعارة من الالوان . اذ يقال عن شخص حل به السأم وزهد في الحياة « ساورته فكر مظلمة » كما قال (راسين) في رواية (بريتانيكوس) « حزن مظلم » وقال شكسبير (عن لسان (كلوديوس) عم (هملت) حينما رآه كنيثيا فريسة لآلام أذهلته

« مالي أرى هذه السحب ما فتئت تحيط بك يا هملت » . وهذه الكلمة استعملها (بوسويه) في حديث فخم يخاطب به قبر (كوندبه)
« هلموا سراعا يا عظماء الرجال واقبلي اليوم يا أنوار العالم وأنت منسربة بالأمك كاذك مشتملة بالسحب »

وقد قارن (الفريد دوموسيه) في قصيدته (ليلة من تشرين الاول) ألما خفيفاً بالضباب حيث قال : « أصبحت والحمد لله لا أتذكر مما تكبدته من الآلام فيما سلف من الأيام . الا كطيف خيال أو ضباب خفيف هاجه الفجر ثم لاحت بعده تباشير الصباح ونفحات النسيم العليل بين الندى البليل » ولكنه حينما يمتلكه الشك وتقاسمه الآلام الغنية يصيح قائلاً : « انني أقعد وحيداً في ظلام فؤادي »
لنرجع الآن الى الموسيقى فننساءل ماذا يصنع الموسيقيون حينما يريدون ان يعبروا عن عواطف السأم وضعف العزيمة ؟

يستعملون الصور كالشعراء ، ويخصصون آلة (الكوترباس) أو (الفيولونسيل) للانغام الضخمة . ففي (فصاص فوست الاخروي) تأليف الموسيقي (ييرليوز) نسمع الجملة المشهورة : « فوست في غرفة عمله » باصوات مختفة عميقة تعتبر كأنها صورة مماثلة للتعبير الشعري الذي ذكرناه في موضعه ولا فرق بينهما الا أن هذه الصورة الموسيقية أصبحت محققة بعد ان كانت خيالية في الشعر . فطريقة الموسيقي هي عين طريقة الشاعر فيخاطب هذا الاخير العقل ولكن الموسيقي يمس الاذان وصورة الشاعر ليست الا ادراكاً وأما صورة الموسيقي فانها ادراك محقق فاحدها يمنحنا فكرة الاحساس والآخر يعطينا الاحساس نفسه . فبلغ القول اذن أن اللغة الموسيقية حقيقية ولغة أهل الادب خيالية

الموسيقى والحب

وضع (داروين) الحب قبل ظهور الانسان وقال انه معروف من القدم بين الكائنات الحية التي نشأ وارتقى منها الانسان . فتراه قد توخى الصدق والاخلاص وعلم التحيز والتبصر في التأكيد مما جعل كتابه منبع علم يستقي منه كل طالب

وسكان هذا المؤرخ الطبيعي الانجليزي رقيق الشعور بالنسبة الى الفن يريد أن يحل هذه المعميات :

لم احرزت الموسيقى قوة عظيمة في التأثير تثير ما كمن من العواطف ؟ من أين أنت فضيلة هذه اللغة التي نشعر بتأثيرها الفتان دون أن نستطيع ادراك كنهها ؟ يعتمد (داروين) في الجواب على هذه الاسئلة على القضايا الثلاثة الآتية :

١ — للموسيقى قوة في التعبير (وهذه الكلمة مستعملة في هذا الموضوع بمعناها العامي المتداول) محدودة : اذ لا تستطيع ان تعبر عن الخوف والبغض والذعر والغضب الحاد ولكنها بالعكس تجيد في التعبير عن الحب وفرح الانتصار والظفر

٢ — يشاهد في فصل الانتاج ان الحيوانات يسمع لها أصوات وغناء

٣ — يوجد بين الحيوان والانسان انتقال ورأى

هذه القضايا الثلاثة من طبيعتها ان تنير علم الجمال . فلو سلمنا ان الحيوانات في زمن الزوان تكون منقاداة بعامل الحب والغيرة والتنافس والنصر وان السلف الغابر قبل تمدينه استعمل الاصوات والاوزان الموسيقية وان خاصية التأثير في الموسيقى الذي ينفذ الى أعماق القلوب يكون مفهوما عند حد معلوم . فتكون الموسيقى بناء على مبدأ الارتباط الوراثي تجدد عندنا بطريقة مبهمة غير واضحة الانفعالات الشديدة التي كانت في العصور الخالية .

اذن كل ذلك يقرب من الحقيقة الغرض القائل بان مظاهر أصوات الحيوانات التي سبقنا لم تكن لفظا يبع الصوت بل كانت نوعاً من التخاطب مرتبطة بعواطف حب الغير وطريقة فنانة خلاصة للشعور . اننا لا ننكر ان استعمال هذه الطريقة كان ولم يزل نتيجة مقبولة . ولكن في الحقيقة اننا اذا لم نسلم بان الاناث لا تحفل بهذه الوسيلة ولا تنقاد للافتتان بالذكور لوجب علينا أن نعترف بان الاعضاء المتعددة التي يحوزها الذكور غالباً ليصفي اليه لا فائدة فيها مطلقاً وهذا شيء مستحيل

ان (داروين) يعترف بان الذكور لا تترك وسيلة لمظاهر الزينة الا استباحتها فلا تقتصر على نشر ريشها المفوف المزدان بابهى النقوش مثل الطير المسمى (باراديزيه)

المعروف بطير الجنة والطاووس وغيره بل يمنحها الهام التنازل فنا فتغني

يغرد العندليب بنغمات ملؤها الفن ليظفر بأليفته. ويعمد الطير المسمى (تيترا) (وهو نوع من الديوك البرية ضخمة جداً يسكن غابات أوروبا) الى اشارات أشبه (بالبانطوميم) مختلطة بغناء اذ يقف على غصن واطيء وينشر ريش عنقه الطويل ويخفض جناحيه وينكت الغصن برجليه ويردد عينيه بشكل مضحك ثم يصبح صياحاً حاداً أصم الصوت متقطعاً بطيئاً فيزيد شيئاً فشيئاً في القوة والتنوع والسرعة حتى تصبح أصواتا تنبؤ عنها الاسماع وموسيقية في الوقت نفسه ثم ينتهي بأفعال عينيه كمثل من الملذات

فالحيوان الذي يظفر باقرانه المنافسين يصبح مؤسساً لخلف أرقى وأعظم لانه بانتصاره قد أعدم من الوجود افراداً دونه في المزايا والصفات وحيث ان هذا الخلف خاضع لنفس هذا القتال والانتقاء ثم يتحول بدوره شيئاً فشيئاً وبمرور الزمن تنتج أنواع جديدة بهذه الوسيلة

كم من معان متضمنة في غناء الطير اذ جميع أمانيه ومستقبله طي أغانيه وصوته فان حرم من ورود حياض الهناء والتمتع بأليفة يسكن اليها فذلك راجع الى حرمانه من موهبة حسن الصوت واتقان الغناء ا فالانسان أتى متمماً لأعمال الحيوان الموسيقية وغيرها

الالمان المشجبة الفتانة التي جادت بها قرائح عظماء الموسيقيين ليست الا اطالة في أحسن مظاهرها وتحقيقاً لخيال عمل شخصي مرتبط باقوى العواطف وأرقها في الهيئة الاجتماعية. فيفتي الانسان وتمجي بعده عواطفه ممثلة على صفحات الاوراق وبهذه الصفة تفسر أسرار الموسيقى وعواملها المؤثرة. فهي أسرار لانها مجردة اليوم من وظيفتها الاصلية وانها تمس أشياء اختارتها الزخارف ولغة خصصت من منشئها من قديم الازل للحب. وانها تؤثر في أعماق النفوس لانها تمس منا الالهام الحيوى الهام التكاثر والترقي وتجدد فينا دون أن نشعر وبطريقة مبهمه خفية ارتباط الفكر بوراة طويلة لا تحددها الاجيال

اننا نستحسن من (داروين) فكرة اتحاد الحب والترقي وانهما أمر واحد .
فالفردان اللذان يبحثان عن بعضهما لا يكتفیان بالتكاثر واستمرار الحياة بل يريدان
أن يرقيا الى ذروة الاماني والآمال . اذن لو وجد الترقي في الحقيقة وانه سنة
وناموس لوجب أن يرتبط بأصل الخليقة ومبدأ أولى يرتب تطورات الكائنات
فنرجع اذن بالتعبير الموسيقي الى دور عظيم فحم !

ملاحظات على فكرة (داروين)

ان كان يزعم (داروين) انه أنانا بنظرية عامة تامة للموسيقى فاننا نعارضه
بجملة اعتراضات اذ يستحق ان يؤخذ بأنه افراط في تسهيل مسألة هي في الحقيقة
عقدة العقدة حتى عدها في غاية البساطة

اننا نرد عليه بان غناء الطير ليس في الحقيقة موسيقياً ودليله أن كتابة غناؤه
من أصعب الصعوبات . ولا ننكر انه اذا اجتمعت طيور مختلفة وغنت مع بعضها في
آن واحد فان أصواتها لا تنجح الاذان . ولكن الاصوات الانسانية الصادرة في
وقت واحد ولم ترتب باتفاق سابق تنبوعها الاذان وتنفر منها . ويلزم الانسان
اذا كان يريد أن يميز لحناً في مظاهر أصوات بعض الحيوانات أن يكون
موسيقياً ماهراً

فلو سلمنا بالفرض الذي ينسب للغناء هذا التأثير فلم انحرَف الانتقال الوراثي
وغير خطة سيره حتى أصبحنا نرى ان النساء أكثر استعداداً للغناء من الرجال
وهن اللاتي تحمل أصواتهن محل الاعجاب لدى الرجال

ولكن (داروين) اشدة تبصره وحكمته نسي حقيقة طبائع الاشياء التي تكلم
عنها اذ أراد أن يضم الموسيقى الى التاريخ الطبيعي فتكلم عنها باهمال واجمال في فقرة
من بعض كتبه اذ أراد أن يفسر تأثير التخاطب بالاصوات فلذلك يظهر أن جميع
أفكاره انجبت الى البحث في الموسيقى من الوجهة الاجتماعية

اننا لانكر على الطير صناعة الغناء بعد ما ذكرها الشعراء القدماء . وقد قال الشاعر اللاتيني القديم (لوكرس) ان الانسان كان يقلد الطيور قبل أن يتعلم الكلام ان لاهل (كامبشانتكا) (وهي شبه جزيرة في سيبيريا الشرفية على نهر بيرنج) لحنا يسمى (اناجيتش) ومصدر اسمه وأصله راجع الى اسم طير يسمى (أناس جلاسيالس) يظهر اسراباً اسراباً في بلدهم في زمن معلوم

وقد كتب الموسيقي الفرنسي أو البلجيكي (كليمان جانوكان) من القرن السادس عشر قطعة موسيقية وصفية سماها (صوت الطير) وقلد (هايدن) قوفاة الدجاج في الرباعية العشرين من قطعه الموسيقية كما عمل مثله (موزار) و (روسيني) ولم يستنكف (بيتهوفن) ان يقلد صوت الطير المسمى (كوكو) في قطعه المسماة (السانفوني الخلوية)

اننا أثبتنا أمراً أولياً اجتماعياً وهو التقليد المستعمل من نشأة الموسيقى فهل نستطيع أن نضيف الى ذلك ان هذا التقليد سببه وأساسه عاطفة لا تغلب ولا تقاوم الا وهي حب الغير ؟ نعم ولكنه بتغيير قليل ندخله في فكرة (داروين)

١ — لو كان الغناء وسيلة للظفر ويتسنى بها من هذه الوجهة ترقى الجنس لوجب ان توجد موافقة وتوازن بين ترقى الغناء وترتيب درجات الكائنات الحية فلم لا يكون القرد أمهر في الموسيقى من العنديلين ونشاهد أن مظاهر أصوات فصيلة البهاائم ذات الائداء ليست إلا لفظاً ينشأ من ظاهرتين بسيطتين وهما الشهيق والزفير فلا يكفي القرد ان يبعث صياحاً شديداً ليقال انه موسيقي

٢ — ولو كانت لغة للحب انتقلت بالوراثة والتطور وانشأت الموسيقى لوجب على الامم الاولى ان تعترف باستمرار الارتقاء وكنا نعلم ذلك من صفات فنهم . ووجب ان توجد بينهم موسيقى تملئها العواطف والتعبير والرفقة قريبة من الطبيعة وخاضعة مباشرة للوراثة واسكنها ليست كما نظن ونفرض

وقد روى المسيو (جروم) مشاهدة عيان رآها البرنس (دوفيد) اذ قال عن (البوتوكودو) وهي أمة من متوحشي أمريكا الجنوبية منتشرة في غابات البريزيل

« ان غناء الرجال أشبه بصياح غير مميز يهتز بين صوتين أو ثلاثة ويكون أونة مرتفعاً وأخرى عميقاً ويتنفسون بقوة ويضعون ذراعهم اليسرى على رأسهم وأحياناً يضعون أصابعهم في آذانهم لاسيما اذا كان عندهم ناس ويفتحون فمهم الى آخره الذي شوّهه (البوتوك) (وهي قطعة مستديرة من الخشب يركبونها فوق شفّتهم السفلى بعد ثقبها وتعد عندهم من أعظم الحلى والزينة) . ولا نظن أن شخصاً ما يرى عند هذه الامة شيئاً يعجبه أو يفقته من الفن !

ان المتوحشين لا يعرفون غير التناسل وقد قال المسيو (لوبوك) : « ان هنود أمريكا الشمالية الذين يتكلمون لغة (التيهيه) لا توجد في لغتهم كلمة تعبر عن لفظ (عزيز أو محبوب) كما انه لا توجد في لغة (الالجونكان) (وهم من هنود أمريكا وقاطنون على مقربة من بحيرة ميشيجان) كلمة تفيد (الحب)

نعم ان أغاني المتوحشين تدور عادة حول الصيد والحرب والنساء ولكن يندر جداً أن يسند اليهم غناء الحب

ولا يوجد عند (الاوزاج) (هنود أواسط الولايات المتحدة) حتى عهد (الشبروكيس) (وهي أمة من هنود الولايات المتحدة مشهورة بالذكاء حتى أصبحت اليوم في غاية من المدنية) تعبير واحد موسيقي أو شعري مبني على عاطفة حنو بين الجنسين ولم تسمع منهم أغان للحب»

وكذلك لا يوجد لحن واحد للحب عند المتوحشين من (الاوستراليين) و (المينكوبيس) وهي أمة من السود منتشرة في جزيرة اندمان بأرخبيل بنغال) وقال المسيو (رينك) ان أمة (الاسكيو) (الذين يسكنون حول القطب الشمالي) يكاد لا يعرفون عاطفة الحب

٣ — اذا كان منشأ الموسيقى صادراً من الالهام التناسلي فلم يرى ان من الوظائف الاولية التي لها السبق في الموسيقى عند جميع الامم تنحصر في الدينية منها ؟ من أين أتت الاغاني الحربية وهي مضادة للحب ؟ كيف يتأتى ان (الاوستراليين) وكثير غيرهم يغنون في معظم الاحيان حينما يكونون منفردين

وحيث ان الالهام التناسلي عام فلم نشاهد ان بعض الامم (كالامان) أمهر في الموسيقى من أمم أخرى من عنصرهم وأقربائهم (كالانكليز) ؟
يعتبر الالمان ملوكا للموسيقى حيث انتجوا نحوها مثل (باخ وهندل وبيتهوفن وفير وموزار وشومان وغيرهم

يصعب علينا ان نقبل نظرية (داروين) كما هي على علاقتها فان هذا المؤرخ الطبيعي العظيم يريد ان يوجد سلسلة مستمرة تربط موسيقى الاناسي المتمدنين بمظاهر الفريزة التناسلية عند الحيوانات الحديثة . ولكن توجد كما رأينا عدة حلقات تنقص هذه السلسلة وتظهر باختيارنا ما سبق عن الامم المتوحشة . وبتغيير خفيف لا يزيد عن تأخير حد يكفي لان يصير هذا المذهب مقبولا

ومبلغ القول ان (داروين) لا يبتعد كثيراً عن علماء ما وراء المادة الالمانيين الذين يسندون الى الموسيقى امتياز التعبير الاساسي عن أعماق نفوسنا . ومأسأنا كياننا غير الحياة والرغبة في اطالتها وتخليدها وابلغها الى منتهى الكمال والسعادة تكلم المسيو (كلوديوس مادورول) في كتابه (سياحة في غينا) عن الزوج وشدة شغفهم بالملذات والشهوات التي يؤسسون عليها موسيقاهم ورقصهم فقال : « لا تلبث الشمس ان تغيب عن العيون إلا وترى افريقية باجمعها قد نحوالت الى أعياد تنطلق في ارجائها أصوات الطبول » وهذا أشبه بالحفلات الموسيقية ذات الاوزان الغربية التي تصدع الرؤوس وتبعث في المساء عقب قيظ شديد من انغام مختلفة سائمة في الحقول . وهذه الموسيقى الفخمة الوحشية لها معنى عظيم اذ بالاصغاء اليها يفهم الانسان شيئاً من روح الطبيعة

حينما يخيم الظلام ترى الناس غير قادرين على مغالبة رغبتهم في منح الحياة أبهى مظاهرها واعادتها في أشكال جديدة أعظم وأجل من سابقتها . وما هذه الرغبة الا الحب اذ منه ينبعث هذا الصوت الفخم الجهوري الرنان صوت الكائنات الحية التي تريد الرقي وتدعوه

موسيقانا أشبه بموسيقى الزوج ولا مشاحة في أنها أعظم رقياً ونهدياً ولكنها

تعب بصيغ واضحة جلية عن ملذاتنا المتأصلة في اعماق نفوسنا . انها تجمع وتطهر وترفع دعوة الجنسين لبعضهما فترام في ليالي الصيف منتشرين في الخلوات كنسيج من الفتن والملذات فيجد الحب بينهم مقاما ارفع منه في الشعر الخيالي وعلى هذا النمط سار نوايغ الموسيقيين اذ كانوا مواعين بالحب ومعظم تأثرات وانفعالات السامعين كانت من أصداء عواطفهم الاخيرة

الموسيقى والسحر

السحر هو مجموع ثمرينات يعتقد الانسان أنه بواسطتها يجعل الطبيعة والارواح التي تعمرها خاضعة لارادته . يعترف الدين والسحر بالارواح ولكن علاقة الانسان بالارواح ليست واحدة في الدين والسحر . ففي الدين ينتهل الانسان الى رب قادر ويسأله بمخشوع وتوسل عنايته الربانية ورحمته التي وسعت كل شيء . ولكنها تختلف في السحر لان الساحر لا يضرع ولا يرجو بل يأمر وينهي . اذن فالاعمال الدينية تستقي نفوذها الفعال من العواطف والنيات وهما شعار الدين . وفي السحر يعمل الساحر حسب مقتضيات قوانين مخصوصة دون ان تكون لعواطفه ونياته تأثير في اعماله . وهذه القوانين لا يستطيع الانسان أن يقاومها أو يبطل مفعولها الا اذا كان ساحراً

وقد وصف الشاعر اليوناني القديم (أوريبيد) في احدى رواياته المحزنة الفن الذي يجعل الالهة تتكلم رغما عنها بواسطة عزائم معينة وهو عبارة عن السحر في الازمان التي وجدت فيها الآلهة الميتولوجية . وهذا الفن كان يهر هذه الآلهة حينما يكون مضاداً لارادتهم الدينية

نرى ان كتاب النصرانية يميزون بين المعجزات الحقيقية التي تحدث بفضل الدين وبين مثيلاتها التي تنال بالتعزيم . ولوانهم يحترمون الاخيرة لكنهم يعتقدون بجواز حصولها

وللسحر مذهبان أحدهما يدوي يتركب من أشكال هندسية وصور واحراق
أشياء مختلفة كالبخور وغيره والثاني شفهي
يستدعى المذهب اليدوي الصناعة فهو اذن متأخر عن الشفهي لان الصوت آلة
جعلتها الطبيعة طوع الانسان ولا يستلزم استخدامها شيئاً سوى الغريزة وهذا مما
يثبت ان المذهب الشفهي أقدم من اليدوي
ابتدأوا في السحر الشفهي بالغناء ومرت صيغه بوجوه التطورات الآتية :
لحنوها ثم رووها ثم كتبوها وحملوها في بعض الاحوال كالتائم
وقد اعتبر الصوت أشد تأثيراً ونفوذاً من أشربة العشق حتى في الزمن الذي
انتشر وتقدم فيه السحر اليدوي . وقد عرف الناس واشتهر بينهم ان المذهب اليدوي
كان دائماً في حاجة للاستعانة بالصيغ الشفهية

الفناء السحري

يوصف الفناء السحري عند القدماء بالمسائل الآتية :

١ — نظامه الذاتي — فهو متقدم عن كل القوانين الموسيقية المنتظمة وخاضع
لقوانين عامة هامة في مادة السحر الا وهي التقليد . والفناء السحري بعيد عن أن
يطرق فن الجمال لانه لم يعمل للسمع بل هو موجه لفرد واحد غير مرئي يتأثر لاقول
شيء من الاعمال السحرية . ويعني الساحر لروح وحده الذي يريد ان يهيمن عليه
لا نجد في الفناء السحري ما نسميه بالنظريات الموسيقية ولكنه مزود بجميع
ما يلزمه وينشئ كيانه من أصول فن السحر

٢ — من وجهة ارتباطه باقوال تكون عادة غير مفهومة لدينا ولا يفهمها المغنون
انفسهم

٣ — عمله ودائرته التي نتناولها ابجائه — وهو قديم في تاريخ المدنية الانسانية
وله أهمية عظمى لانه كان امراً عاماً يظهر في اغلب الاوقات في أدوار الحياة العملية

٤— من الوجهة الاجتماعية — نرى للغناء السحري ارتباطاً معيناً بالحياة الاجتماعية عند القدماء والمثال الآتي يوضح لنا ذلك جلياً

ان قبائل (اوماها) (قوم من هنود الولايات المتحدة يسكنون مقاطعة نبراسكا وكانوا في الزمن الغابر مشهورين بالصيد ولكنهم أصبحوا في حالة طيبة من المدنية وتركوا عاداتهم وعقائدهم القديمة حتى صاروا الان من أعظم العاملين في الزراعة يكثر في بلادهم الجاموس وصيد هذا الجنس خاضع لوقائع مختلفة ويمكث زمناً طويلاً وهو مرتب باستعمالات محدودة والزامية لكل فرد . وكل مخالفة تصدر منهم تدخل تحت طائلة العقاب الشديد . تخرج القبيلة من قريتها بقيادة رئيس ينتخب في حفلة عظيمة وهذا الرئيس في الوقت نفسه صياد ماهر وكاهن مغن وساحر عظيم يحمل كل تبعة اذ هو المنوط بإدارة حركة الصيد واختيار أعظم الامكنة التي يعسكر فيها جنده والتنبؤ بمكان الصيد واحضار الطعام ويجيب عن كل ما سيحصل من تقلبات الايام وهجوم الاعداء والمشاجرات وغيرها

المطر وصفاء الجو

الغناء السحري عند المكسيكيين

تهطل في هذه البلاد الحارة ذات الشمس المحرقة الامطار الغزيرة لان جبالها (سييرا مادرا الغربية) تبلغ ٢٠٦٩ متراً فوق سطح الماء . والتبخر عندهم سريع كما أن الارض متخلخلة لا تحفظ الماء طويلاً فلذلك تراهم مهدين بالجدب اذا أمسك عنهم الغيث في المدة المنحصرة بين شهري يونيه واكتوبر

غذاء هذه الامة مترتب على نجاح زراعتها فهم يفضلون ماء السماء على الذهب والفضة . يعتقدون ان المتصرف في المطر اله يكون تارة جواداً وطوراً بخيلاً ولا وسيلة لهم لقهر هذا الاله إلا بالغناء السحري

انتشر في المكسيك في الجهات الممتدة بين حوض (لاكوستر) الذي توجد في وسطه (مكسيكو) وفي الوجهة الشرقية على مقربة من البحر والقبيلة بالقرب من برزخ (نهويانتيبيك) المذهب القائل بوجود آلهة المطر السماء (تلالوك) أي الهة الظواهر الجوية الذين يجودون بالغيث . ويوجد في الحدود الشرقية قبيلة منهم تسمى (نونوالكاس) وهو اسم من أسماء آلهة المطر القدماء (نونوالكالت)

وقد عثر على صورته تمثل (تلالوك) وهو قابض على صولجان من الخشب به السحب وعلى صدره اناة يعتبر انه يحوي المطر وهو مصور باللون الاخضر وله أخت أو زوجة (تسمى الازار الزمردي)

الاستغاثة بآلهة الامطار بواسطة الغناء السحري متقدم على الضحايا الفاجعة التي كانت تقترف عدة مرات في السنة اذ كانوا يذبحون عدداً عظيماً من الاطفال في جهات مختلفة على قمم الجبال تشريفاً لآله المطر ليمنعهم وابلا مدمراً. كان الذين تدور عليهم الدائرة ويخونهم الحظ المنكود من هؤلاء الاطفال الابرياء يزينون بفاخر الثياب ويحملون على الاكتاف في أسرة محلاة بأبهى الريش وأجمل الازهار يتقدمهم موكب عظيم جمع بين الغناء والرقص والعزف بالآلات الموسيقية

ولقبائل (الزونيس) رقص عظيم للمطر يعتبرونه من أقدم عقائدهم وعاداتهم وهو متداول بين كافة طبقاتهم ومصحوب بغناء يحدث في حفلة شائقة تقام بكل اعتناء لنوال الامطار . وهاك ترتيب القسم الموسيقي للحفلة

تضرم أولاً النيران على الصخور وذري الآكام المجاورة ويستمر اشعالها الى أن تتقبل صلاتهم ودليل ذلك نزول وابل هتان . وللمطر كاهن يخاطبه بخشب خاص يحدث عند احراقه دخاناً كثيفاً يخلق في السماء كالسحب

ثم يرتل العزائم والاغاني السحرية الفتيان الشجعان والعذارى الاتي يلين دعوة الكهان وينشدن بحمية وحاسة وهن لباسات حللا بيضاء حاملات ألواحاً نقشت عليها من جهة سحب مربدة ومن الاخرى صورة البرق

يستمر الرقص والغناء ليلاً ونهاراً بصبر لا يستطيع العقل تصوّره والجميع مرتسم على وجوههم الوثوق بنجاح أعمالهم . وتتركب الحفلة الموسيقية من الأقسام الآتية

- ١ — طبول تؤذن برقص المطر
- ٢ — يأمر كاهن المطر الفتيات بافتتاح الرقص (غنا).
- ٣ — يدعو الجميع المطر (لحن)
- ٤ — إشارة بالسكوت
- ٥ — يضرب على صفائح رنانة تمثل صوت الرعد
- ٦ — غناء العذارى للاستغاثة باله المطر
- ٧ — نشيد الحمد والثناء عقب سقوط المطر

الاستسقاء عند الفراعنة

اشتهرت بلاد الفراعنة من غابر الأزمان بخصبها وتقدمها في الزراعة وكان الملك مسؤولاً عن فصول السنة ويعتقدون أنه قادر على منح المطر ومنعه لأنه كان في الوقت نفسه كاهناً وهب قوة الصوت ونفوذ السحري وأقدم دليل على ذلك نشيد النيل وهو أشبه بغناء سحري الاستسقاء . وقد لاحظ النام الذين ابتدأوا بهمار هذا القطر عدة ظواهر للنيل اذ يرون أمامهم نهراً يجهلون منبعه ويظنون انه يخرج من حفرتين لا يعلم لهما قرار بين جزيرتي (القبلة وايليفانتين) . يتغير لون هذا النهر عدة مرات في السنة . فحينما تحترق الزروع من الرياح الحارة برمال الصحارى في شهر يونيه يكون لونه أزرق رائقاً . ووقما يزيد ويحمل بقايا النباتات المتخلفة من مستنقعات بحر الغزال يخضر لونه (ويعتقدون ان هذا الماء الاخضر هو عبرات المعبودة ايزيس تبكي قرينها) ثم يستمر في الزيادة ويتلون ماؤه بالحرارة كأنه دم قانيء فيغمر الشواطئ . ويترك فيها قبل أن يبارحها مقداراً عظيماً من الطمي يخصبها ويجدد قواها

تدل ترجمة الميسو (ماسيرو) لنشيد النيل ان هذا النشيد مثال من النظم الشائق المختلط بالعزائم السحرية . ونذكر فقرته العاشرة انقف على نموذج من أغانيهم

الفقرة العاشرة لنشيد النيل — يرتفع لاجلك نشيد الاعياد موقعا على (الهارب) ومسنداً بالايدي — يحبك فتيانك وأطفالك — يعدون لك صفوف أولادهم الطويلة — أنت ألحم زينة للارض — أجعل سفينتك تتقدم أمام أعين الناس — امنح الحبالي قوة عظيمة — أحبب نمو قطعان أنعامك

الأغاني السحرية والحب

كان للفتنة فن شهى يعد من العلوم القديمة وهو مؤسس على أصول وقواعد واضحة قبل أن يصبح أمراً متداولاً لاهواء زينة الحياة والابتداع الانساني لم يكن هذا العلم مستعملاً لمحض الزينة بل كان يرمى لغرض حقيقي . وهو على نوعين أحدهما موسيقى والثاني كلام موزون . ولكن هذا الشكل الأخير صادر من الاول . وما الشعر في الحقيقة الا موسيقى يعوزها جزء من أصولها وقد ترجم الميسو (ماسيرو) أغاني للحب وجدت في البردى المحفوظ في (تورينو) بايطاليا و (هاريس) بالجزيرة وهي أشبه بنشيد الانشاد (باب في التوراة) والبعض منها أشبه بعزائم سحرية . والمثال الانى يدلنا على شكايها :

« أيها الحبيب الجميل ! منأى ان أهيمن على محاسنك وشيمك بما لي من نفوذ الحليمة بان تريض سويأ كما تريد ونهوى وأنت ممسك بذراعي لا ذكروقتندتوسلائي لفؤادى الذى أصبح مندجاً فى احشائك . ان غاب غنى حبيبي طول ليلي ولم يأت أكون بمثابة من ووريت فى لحدھا ! ألم تكن أنت الصحة والحياة ؟ أنت الذى تنعش بالصحة والمسرات فؤادى الذى ينشدك ؟ (كثيراً ما يصادف الميسو ماسيرو عقبات فى الترجمة ككلمات باللسان الميراطيقي المكتوب بعضه باحرف يونانية

قديمة أو محو في الكتابة أو تمزيق في البردى يذهب ببعض الكلمات وغير ذلك مما يجعل الترجمة في بعض الأحيان غامضة)

اغاني الحب عند هنود أمريكا

يشعر هنود أمريكا المتوحشون بنفس عواطف المتدينين فيعبرون عنها تعبيراً ناقصاً لكنه مناسب قليلاً وأناذا كرون بعضاً منها لقبائل (أوماها) .
يقتصر الهندي على مقابلة أقارب أمه وأبيه وقر قليل غيرهم ، وحيث ان زواج أقارب الابوين محرم عندهم فالبنت لا يسعدها الحظ بالعثور على زوج ممن حولها . فيلزم اذن ان ترتبط علاقات الحب سرّاً بطرق غريبة خارجة عن دائرة الاسرة .

وحيثما يصادف الشاب فتاة وهي ذاهبة لطلب الماء يراقب رجوعها ليعرف خيمتها ويترصد في مكان غير بعيد ليتسنى للفتاة أن تسمع غناءه ليلفتها اليه ويحوز اعجابها

تسمع الفتاة الصوت دون أن ترى المغني وتجهد نفسها في معرفة صاحبه وتقول :
« من المغني ؟ » وهذا السؤال هو نتيجة اللحن وفائدته . يعقب ذلك مناجاة الحبيبين مدة ليست بالقصيرة وينتهي الامر باختطاف أو زواج أو مغازلة طويلة وتدل بعض أغانيهم على شكوى الفتاة من بعد حبيبها الذي لا تفكر الا فيه وتود أن يكون قريباً منها

والغناء الآتي الصادر من هندي اميريكي الى حبيبته يدل على النفوذ السحري للصوت متحداً مع تأثير سحري لشيء مادي

« اصيخني الى صوت مزماري يا عين الحمامة (اسم الفتاة) — اصفي الى الحاني فهذا صوتي — لا تدعي للاحرار اليك سبيلاً فاني عالم بالفكارك — اني احمل محني السحري فلا تستطيعين الفرار — اني أجذب فؤادك الي ولو كنت في جزيرة بعيدة عما وراء البحيرات العظيمة . . . لا تهربي مني فاذهب في طلبك ولو الى السحاب — معالجتني عظيمة وهي طوع بنائي اذ بها أجذب النما سواء اكان في الارض أو في السماء — الروح الاعظم خاضع لامري يا خطيبتي »

لم وجرت العزائم السحرية للحب

نريد أن نبين بعض مسائل عامة تساعدنا على فهم استعمال آخر للعزائم السحرية في أعمال العواطف

اعتاد القدماء أن يعتقدوا أن جميع الظاهرات والحوادث مهما كان نوعها من أعمال أرواح خفية . والحب معدود أيضاً ضمن دائرة نفوذ هذه الأرواح . وكان الذين يصبحون هدفاً لسهام الحب يشعرون بتأثر قوى أو عنيف يداهمهم على حين غفلة ويغير حالتهم الخلقية . فالإنسان الذي يحس لأول وهلة بهذا التحول المبهم الذي يحدث له اضطراباً ويعكس صفوه يظن نفسه مملو كالغيره وأنه أصبح تحت مشيئة روح استحوذ عليه

كانت العواطف التي يشعر بها هؤلاء المحبون شديدة معروفة بين الناس وقد بلغ منهم أن صوروا هذه الأرواح وجعلوا منها آلهة شديدي الحول والقوة يخشى جانبهم وأنشأوا لهم القصص الخرافية وجعلوا لها مكاناً رفيعاً في (الميتولوجيا)

كانوا يعدون الحب قوة لا تغالب تسيطر على الإنسان وجميع الكائنات الحية سواء أكانت في البر أو في البحر فتقربها وتجمع بينها . وقد فخم الفلاسفة والشعراء الأقدمون الحب وأظهروا قوته التي لا تقهر مثل أفلاطون و (أوريبيد)

قد علمنا أن العزائم السحرية لها نفوذ عظيم على القوى الغير مرئية المحتمنة حول الإنسان والمستترة في الظاهرات الطبيعية . وحيث يوجد روح للحب صار بعد آله فللعزائم والصلوات المرتلة والشعر المعبر عن العواطف دور مهم في علاقات الإنسان مع هذا الروح أو الآله القوى

وقد عد القدماء الحب المبرح من الآلام وحيماً تكون العواطف شديدة غير منتظمة ولا خاضعة لمراقبة العقل أو الضمير يحدث في الحياة الباطنة اضطراب أشبه بمواصف الحياة الظاهرة وينتج عوارض مرضية تختص دراستها بالأطباء كاضطراب التنفس والدورة الدموية واختلال نظام الأعضاء

وكان عندهم عزائم خاصة بشفاء الأمراض وتسكين غضب أرواح الحب .

وأعظم دليل لاثبات ما ذكرناه فقرتان من صفوة ماتركه لنا الاقدمون من رائع
البلاغة وساحر البيان ألا وهي رواية (ايبوليت) التي رفعت شأن مؤلفها الشاعر
اليوناني القديم (اوربيد)

نشيد — فنيت (فيدر) على فراش الآلام واعتكفت في قصرها مختمة بمخمار
شفوف يستر منها ازدان بشعرها العسجدي مر عليها ثلاثة أيام لم تذق فيها
طعاماً . أصيبت بألم خفي فأرادت أن تجعل لحظها المنكود حماً

أيتها المرأة الرافلة في برد شبابها ! ان أحد الآلهة بطاردك وربما كان (بان
أوهيكات أو كوريانت أو سيديل) الضال في الجبال وهو غائب الرشد
ليت شعري هل أصابك ما أصابك من جراء اهانتك لارطيميس (الهة الصيد)
أو خطأ ارتكبه في أمام شعائر القربان ؟ انها تطوف بأطراف الارض وتخوض
البحار فلا يفلت أحد من ملكها

نشيد آخر — أمور يا الله الحب ! أنت الذي يسكب من عينيه سم الرغائب
والملذات في القلوب التي تطاردها . لاتكن لي معاديا ولا تجعلني هدفا لسهام
غضبك . ليست النيران الملتهمة ولا الحراب التي ترميها الكواكب بأشد هولاً
وازعاجاً من حراب الزهرة (ربة الحب) التي تقذفها أيدي (أمور) ابن (جوييتير)
عبثاً بضحي اليونان مثاث الثيران (لجوييتير) على شواطئ (الفه) و(لابلون)
في محارب دلف

ان كنا نهمل عبادة (أمور) الظالم الغشوم حارس ملذات (الزهرة)
والمستبب في فناء من كتب عليهم الموت فليهبهم حيماً ينقض عليهم الى دركات
المصائب والاحن

الدغاني السحري والطب

مداواة لدغ الثعابين بواسطتها

ان أقدم أثر يعتمد عليه تاريخ الموسيقى هو الكتابات المنقوشة على هرم مصرى بسقارة أنشيء قبل الميلاد بألف من السنين

يحتوي هذا الهرم على رمس الملك (أوناس) آخر ملوك الاسرة الخامسة وقد اكتشفه المسيو (ماسيرو) في شهر فبراير سنة ١٨٨١

ان الغرفة المودع بها تابوت هذا الملك مغطاة حيطانها بصيغ معظمها سحرية والبعض منها دينية بفضلها يكون الميت آمناً مطمئناً ويستطيع أن يتم ما قدر له من الحياة الجديدة

يرى المتأمل في هذه الكتابات انها بليغة وأسلوبها أشبه بالقصائد ولكنها لم تعمل للسمع ولا للجمهور بل هي مركبة من صيغ تعمل وحدها من نفسها بما لها من الخواص والتأثيرات

لننظر في قطعة من هذه الصيغ دون ان نشغل بالآثار الموسيقية التي يتسنى لنا استنباطها منها . وهي تدل على ما يتمنونه وينتظرونه للملك (أوناس) ومضمونها انه لم يمت اذ يقرأ منها هذه الجملة : « أيها الملك أوناس ! يد شخصك الثاني أمامك يد شخصك الثاني خلفك . رجل شخصك الثاني أمامك . رجل شخصك الثاني خلفك ... انك موجود . صولجانك (آب) بيدك . انك تصدر أوامرك للأحياء . ومن تواروا في مساكنهم الخفية ... انك تطهر بماء الكواكب الزلال ثم تنزل على حبال من حديد ... تجذبك الارواح النورانية الخ ثم يمر ذكر عدة آلهة ويقول لكل منهم اذا كان وجودك حقاً ليس يوم فكذلك وجود (أوناس) أمر حقيقي « اذا كان ابنك (هور) حياً (فاوناس) مثله الخ ... تفتح أبواب الافق ونهشم مزاليجها . هاهو مقبل نحوك يا (نبت) قد أمك يا (توازيريت) الخ .

نجد من مميزات هذه العزائم انها أشبه بدفاع للموت والفناء تلبسه روح بليغة

من الشعر ولكنها في الحقيقة مخالفة للشعر من بعض الوجوه لأنها لم تعمل لتلفت اليها أحداً حتى الميت نفسه اذ مخاطب بها بعض الاحيان الالهة وهي مختفية طي حصن حصين ولا قيمة لها الا أنها ظاهرة يعتبر مفعولها غير خاضع لاي ارادة انسانية وهذا هو خاصية السحر

وقد بين المسيو (ماسيرو) ان هذه الكتابات مركبة من آيات وكل جملة منها تشمل الانواع الآتية : ١- دعاء - ٢- صيغة تسد مسد عمل حقيقي - ٣ -
تتمة لهذه الصيغة

لم يقتصر الملك (اوناس) بعد موته على ان أصبح متمتعاً بحياة جديدة بل صار له ولذلك وجب أن يزود وتقدم له الهدايا والكتابة تدل دلالة صريحة على كيفية تقديم الهدايا من فطير وابن وزبد وجعة سوداء مصحوبة بالعزائم التي كانت تعمل معها وكذلك العطور والبخور الذي يحرق عند الحاجة مع بيان الاشارات التي كانت تعمل وقتئذ

وأهم ملاحظة تلفت النظر في غرفة الملك (أوناس) هي السطور المنقوشة فوق تابوته وهي حاوية لصيغ سحرية تصلح لوقاية الميت من لدغ الثعابين التي تعترضه في رحلته الى الاله (أوزيريس) حامي الموتى

يعتقد قدماء المصريين ان الحياة الآخرة أشبه بالحياة الدنيا معمورة بنفس حيواناتها وهوامها فيستعملون الموتى ذات الصيغ التي كانوا يستعملونها لوقاية احيائهم من لدغ الثعابين وينقشونها فوق توابيتهم

الامراض عند العائنين على الفطرة

زار سائح في أوائل القرن التاسع عشر جزائر المحيط الاعظم فقال عنهم: «انهم يعتقدون ان الموت هو الذي يحصل من اصابة تسبب الوفاة كموت الحروب»
ليست الفكرة القائلة بان الموت من قوانين الحياة معروفة عند القدماء لان الانسان حسب عقيدتهم لو مزقته الضواري اربا اربا أو اخترمت جسمه السهام فلا يكون ذلك شيئاً غريباً أو خفياً لان سببه ظاهر للعيان. ولكنهم يعدون الموت

من العلل والآفات أمراً من خوارق العادات ويعزونه الى الارواح الشريرة .
فان شكاً أحد من صدام أو مرض في الامعاء ، أو غيره قالوا قد لبسه جني . فداواة
هؤلاء المرضى ليست الا طرد هذه الارواح المتسلطة عليهم

يبدأون بـداواة مرضاهم بالعزائم السحرية ثم يصحبونها بالعمليات الجراحية
والمعالجات الطبية الاولى وهم معتقدون ان الفضل في تأثيرها راجع الى الاغاني السحرية
حينما يدعى الكاهن الوثني في الكونغو لطرد روح خبيث استحوذ على زنجي
يقيم للمريض حفلة غناء ورقص أمام كوخه وتمكث يومين فيهرع اليها الناس من
كل فج عميق ليشاهدوا الساحر الذي يسمونه بلغتهم (ما كنجيا) . يعزف العازفون
بالآتهم الموسيقية ويغنى الحاضرون أناشيد تصحب الموسيقى ولا يترنم الساحر الا
بمطلع النشيد ويستمر كل دور نحو ساعتين فلا ينتهي الا حينما تنفذ قوى الراقص
الذي يمثل في رقصه الحروب فتراه محمر العينين كأنه نمل من شدة الوغي . بيده رمح
يمثل به هجوم ودفاع خصمين وينتهي الامر بان يتخيل انه ظفر بعدوه فينشد أناشيد
النصر . وتكون الموسيقى وقت هذه الحرب التمثيلية بطيئة أو سريعة على نغمة واحدة
أو متنوعة وذلك وفق حر كات الراقص الممثل

والطريقة المتبعة لغاية يومنا هذا عند الاسكيمو هي المعالجة بالعزائم السحرية

الاعغانى السحرية والطب عند الهنود

انشأ أحد الهنود الرحالين المسمى (هوفان) رحلة يدور بحته فيها على غرائب
قبيلة (أوجيباوا) وهي من أشهر القبائل الهندية المنتشرة بين مقاطعتي (أونتاريو وريد
ريفر اوف ذي نورث) وقد صور صورة تمثل رجلاً من الذين يعالجون بواسطة
الاعشاب مترها في كوخه يحبز خليطاً من الاعشاب يحركه يميناً في رجل اليسرى
ممسكة شيئاً أشبه باللعبة التي تحدث صوتاً من لسانها المعترض أمام أسنان ترسها
يعني هذا الرجل وهو يحضر دواءه معتقداً أن الغناء يصير طعم هذه العقاقير
رديئاً فيستبشعه الشيطان المستحوذ على المريض

بين هؤلاء الهنود جماعة تسمى (مديووين) (ولعلها محرفة من كلمة مداوين جمع مداو) ويسميهن السباح (الجماعة الكبرى الطبية) تتركب هذه الفئة من (الشامنس) وهم في الوقت نفسه أطباء يعالجون بالسحر وكهنة وعرافون وأنبياء وأساتذة للموسيقى

وهذه الجماعة مجهولة الاصل وهي في حماية الآلهة ورعايتهم . ولا تعهد الاسرار للعريد الحديث إلا شيئاً فشيئاً

ليس الهندي المعداد عندهم كفوؤاً لشفاء المريض قاصراً على مهنة المعالجة بالاعشاب بل هو مغن ذو صوت حائز لنفوذ عظيم . اقر باذنيه تابع لموسيقاه بل يستخرج خواصه الفعالة من الموسيقى

وحينما يتعلم التلميذ الجديد التعاليم الاولية يلقنه أستاذه بعض أغان وأنشيد تكون اتجارته أول مورد للارتزاق وهذه الاغاني مؤثرة لحد معلوم . ولا يقتصر التلميذ على بعض أغان محفوظة بل يتدرب على انشاء أناشيده الخاصة

وقد ذكرت ميس (فليتشر) في ابحاثها في موسيقى قبيلة (أوماها) الاغاني الطبية وجعلت لها قسماً خاصاً فقالت : « الاغاني الخاصة بمعرفة استعمال بعض الجذور أو الاعشاب الطبية تنشد عند البحث عنها وجمعها وتحضيرها وبيعها لجميع الناس سمعها ولكن لا يستطيع أحد أن يستعملها غير صاحبها لأنها ملك وحق خاص يحترمه الكبار والصغار وهو بمثابة الصيادلة في عصرنا هذا كل منهم يملك مخترعاته ولا يجوز لغيرهم تقليدها

تأثير الموسيقى في الحيوان

الموسيقى تأثير عظيم في الحيوان فتراها تارة تشجعه كالابل ان أعيائها السير من التعب أو الغيظ أو الجوع حداثاها السائق بشجي الحذاء فتطرب وتنسى النصب وتداوم سيرها بنشاط وحمية . والحذاء أمر معروف بين العرب لا يخلو منه قول شاعر

ونشاهد ان بعض الحيوانات كالخيل والحير والابل تكون بعض الاحيان مستنفرة غير مطمئنة حينما ترد الماء فلا يهدأ روعها وتطمئن حتي يصفر لها راعيها فتشرب وهي آمنة

وأغرب من هذا وذاك تأثير الموسيقى في الثعابين والافاعي هذه الهوام الخبيثة التي جبلت على الشر والاذى والمثال الآتي يرينا أن للموسيقى وحدها دون أن تستعين بالسحر نفوذاً عظيماً على هذه الهوام . نرى الهندي يعزف بالخان خاصة فتهرع اليه الثعابين من جحورها وتقف بين يديه ذليلة صاغرة ودبعة متجردة من ميولها الخبيثة فيأخذها الطرب وتلعب وترقص على نغمة مزماره

روى الرحالة (روسليه) ماشاهده في الهند من استحضار الثعابين وترقيصها فقال : حينما كنا في الهند دعانا اثنان من السحرة المشتغلين باستخراج الثعابين والاتجار بها وقدما لنا بعضاً منها ومن أندرها نوع يسمى (جولايي) أو ثعبان الورد لان ثوبه منقوش باللون المرجاني ونوعاً آخر يشبه رأسه ذنبه حتى يصعب التمييز بينهما . رددت ناظري في الثعابين فلم أجده بينهما النوع المسمى (كوبرا كابللو) فقلت لهما : «الفائدة من جميع هذه الانواع اذا لم يكن فيها (الكوبرا) الذي نريده» فأجابا : «ان هذا النوع نجده بسهولة بل نستطيع أن نعثر عليه في فناء داركم»

أخذني العجب ولم أصدق انهما يعثران عليه في وقت قصير . فقام أحدهما وتجرد من ثيابه ولم يترك إلا سرواله وأخذ المزمار المعروف عندهم باسم (تومريل) وهو خاص بالثعابين ودعاني لاقفائه فذهبنا خلف البيت الى خلاء مغطى بالحجارة والعوسج وأخذ يعزف بمزمارة فينبعث منه أصوات حادة يتخللها تنويكات في الصوت ألطف من التي ابتدأ بها وما هي إلا هنيهة حتى أشار الي أن أنظر الى نقطة عينها فرأيت ثعباناً مطلقاً رأسه من جحره أسفل حجر فرمى الرجل مزماره وانقض عليه كالبرق وهذف به في الهواء ثم أمسك بذنبه حينما وقع على الارض وبعد لحظه وجده حية غير سامة فعاد الى عزفه وما هي إلا لحظة كبح البصر حتى

شاهدنا ثعباناً يثب في الهواء ثم وقع على الأرض فهجم عليه الرجل وأمسك به فإذا هو من النوع الذي أنشده أسود هائل يربو طوله على متر . طفق الثعبان يختبئ ويحاول الإفلات فأسرع الرجل وأمسك به من خلف رأسه وفتح فيه وأرانا أنياباً حداداً يقطر منها الموت الزؤام فتمحققنا صدق عمله لأن معظم هذه الفئة يستخدمون الثعابين بعد تجريدها من أنيابها وعند ما يكلفهم أحد باستخراج ثعبان يطلق أحدها خفية وبهم الناس انه استخرجه من المكان المرغوب ثم اخذ الرجل يخلع انياب الثعبان لمنعهم من الاذى وقد فاجأه اثناء عمله بلدغة في اصبعه فسال الدم منه وأسرع يمتصه بفيه بقوة ثم وضع عليه حجراً صغيراً أسود مخروماً وقدمه لي أخيراً قائلاً انه دواء ناجع للدغ (الكوبرا) واشتريته منه وبعد تحليله وجدته قطعة من العظم مكلسة رقيقة الانسجة

وبعد هذا الصيد انشأ الهنديان يريانا من أنواع ألعاب الثعابين ما أدهشنا ففزعناهما برييتين بعد ما قضينا أكثر من ساعتين في الصيد والالعب فكان هذا العطاء الحقير أجراً عظيماً لهما وخرجنا لاهجين بالشكر والثناء

الموسيقى والتربية

إذا كان الغناء كفوؤاً للتسلط على الجن وتسكين غضبها وطرد الشياطين والتنبؤ بالمصائب أو منعها فيكون من باب أولى أهلاً لأن يؤثر في قلوب الناس ويهيمن نفوذه النافع على عقول الامة أو شبانها ومبلغ القول انه يكون خير وسيلة يستعملها الحاكم أو المذهب للتربية

وقد قال الكتاب القدماء ان العادة التي كانت متبعة عند الفرس أن يهتد بالامراء وهم في الرابعة عشرة الى أساتذة الكفاء ويختص كل واحد منهم ثلاثة مهدين ممن كملت أخلاقهم وآدابهم ويكون أحدهم قاصراً على تعليم سحر (زورواستر)

فهل كان هذا السحر موسيقياً ؟ اننا لانستطيع أن نجيب على هذا السؤال بالضبط
ولكننا نقدر ان نصل بالاستدلال الى ما يقربنا من الحقيقة

وقد روى المؤرخ الصينى الشهير (سيما تسيين) : « ان ملوك الصين الاقدمين
حينما سنوا قوانينهم الخاصة بالسحر والموسيقى لم يقصدوا منها تشنيف الاسماع ومسرة
العيون بل أرادوا أن يعلموا الشعب ان يكون عادلا فى حبه وبغضه وان يهدوه الى
الصراط المستقيم . ولما رتبوا الموسيقى جعلوا ضمن مبادئها تلطيف الاخلاق
الانسانية » فمن الموسيقى ما يريح النفوس ومنها ما يحثها على الخير وترى فى الحفلات
الموسيقية سواء اكانت عامة أو خاصة ان الموسيقى تحدث فى القلوب احتراماً
وطاعة وحبا اذ تصير الناس طائعين لشجي الالحان والانغام

تجد فى الكتاب الصينى القديم المسمى (يوكي) ترجمة الميسو (شافان) العبارة
الآتية : « ولما كانت الموسيقى تؤثر فى اعماق النفوس وتحدث تغيراً فى الطباع
وتحولاً فى العادات فلذلك اتخذها الملوك الاقدمون وسيلة للتربية »

وقدر أى جميع المفكرين حتى من عهد فيثاغورس أن الموسيقى من أنجع الطرق
للتربية . وقال افلاطون : « ان أعظم فن مهذب هو الذي ينفذ الى النفوس بواسطة
الانغام فيهبها لافضيلة وقد أطلق عليه اسم الموسيقى » وقال أيضا : « جميع حياتنا
محتاجة الى النظام والانسجام » ومن هذا نعلم التأثير الطيب النافع للموسيقى .
وقال (اريستوكسين) الفيلسوف والموسيقى اليونانى القديم : « لقد أصاب قدماء
اليونان فى كونهم أعاروا كل اهتمامهم للتهذيب بالموسيقى لانهم استحسنا ان
بهذبوا قلوب الاطفال بواسطة الموسيقى لتنفاد الى الجمال والشرف »

ان هذه الفكر لاتستغرب لانها نتيجة طبيعية معقولة للاعتقاد بان الموسيقى
قوة فتانة ساحرة . واذا كان الغناء يؤثر فى آلهتهم فكيف لا يؤثر فى نفوس الاطفال ؟
يسمح لنا السحر ان نفسر مسألة غريبة تمس ما كانوا يسمونه فى مادة التربية
التهذيب الراقى وفيه الكفاية لاقناعنا باننا نكون مخطئين ان ظننا ان الفن كان فى
منشأ امره من دواعي الزينة

يدهش كل من كان مولعاً بالموسيقى مداوماً على سماعها حينما يعلم أنها كانت معدودة ضمن العلوم الاربعة العالية عند القدماء وهي الحساب والهندسة والفلك والموسيقى . فماذا كان يعمل هذا الفن الرقيق الذي ملأ بالمحاسن والحرية وسط هذه العلوم ؟ بخيل الى المصري ان هذا التوفيق به تناقض وتنافر عظيم ما كان الساحر القديم الفطري يعمل في اركان بيته بل كان يعمل في الخلاء امام الطبيعة ويستعين بالعالم المادي وجميع الكائنات الحية والكواكب فكان في الوقت نفسه طبيعياً كياوياً فلكياً

اختم الآن بهذا الباب حلقة ابحاثي مؤقتاً وربما عدت اليها فيما بعد ان صادفت ابحاثاً جديدة يكتشفها احد العلماء الغربيين المعاصرين ولدى الآن شي كبير مما يتعلق بالموسيقى من الوجهة الفلسفية ولكنه مشحون بالمواد الفنية مما يجعله غير مفهوم للمرة الا لمن له الملم بفن الموسيقى الغربية ويسمع شيئاً كثيراً من مختلف المؤلفات القديمة والحديثة ليفهم ما يسرد منها للاستشهاد . وقد توخيت في عملي أن لا أنشر إلا الابواب التي لا يشوبها شيء من المواد الفنية لتكون سهلة التناول والادراك لكل قارئ سواء كان مشغلاً بالفن او غير مشغول به لتكون الفائدة أجزل وأعم .



الشرف

لو أنعمنا النظر في جميع مكارم الاخلاق لوجدنا الشرف أفضلها بل جماعها ولا نكون مغالين ان قلنا انه هو السبيل الوحيد لسعادة الدارين فلو كنا جميعاً شرفاء بالمعنى الصحيح لاصبحنا في مصاف الملائكة الأبرار نرتع في جنة أرضية لا نعرف للشقاء معنى ولا للشروع لفظاً

الشرف هو شعور تحده عزة النفس والرغبة في اعتبار الغير وهو الذي يحرضنا على القيام بأشرف الاعمال وأصدقها

وللشرف ثلاثة فروض يقضي الاول منها بحفظ كرامة المرء وعزة نفسه والثاني بان يحب للغير ما يحب لنفسه ويكره لهم ما يكره لها والثالث بطاعة الخالق وأداء فروض العبودية

وقصارى القول اننا لو بحثنا في معجم الشرف لوجدنا انه هو والعدل والخير والبر والكرام والاخلاص والتقوى مترادفات

وان وجدت تلك الشروط جمعاء في فلاح حافى القدمين مرتد جلباباً أزرق فهو أشرف ممن جمع الاموال والالقب ونجرد من معنى الشرف وامري ان من يحتقر الاول ويحترم الثاني لأخط من الحيوان الضار

لم يحرم الله علينا السعي وراء المنافع واللذات ولكن هناك غرض أرقى وهو الخير أو العدل أو الشرف

خلق الانسان من نفس وجسم فالاولى عالية رفيعة والثاني سافل منحط والجسم عوامل محرصة على التدهور الى مصاف العجماوات كالخوامر والشهوات والالهام فان لم تتغلب النفس على هذه العوامل كان الانسان في عداد الانعام وقد كل معنى للشرف

وقد عبر افلاطون عن هذه الفكرة أحسن تعبير اذ قال في « فيدر »

« نفس الانسان أشبه بجوادين يجران عجلة حوزيها العقل . أحدهما من كرام الخيل والآخر تقيضه وقد تجمعت فيه العيوب والنقائص . فترى الاول جميل المنظر متناسب الاعضاء مرتفع الرأس بعزائنه انحناء قليل . ابيض اللون اسود العينين يحب المجد برزانة واعتدال ويلبي نداء حوزيه وإشارته دون ان يضرب

والثاني غليظ الاعضاء معوجها كبير الرأس قصير العنق افطس الانف اسود اللون أخضر العينين مشربهما بالحرمة ولا يميل لغير الاعجاب والنفور والهياج . أذناه مغطيتان بشعر كثيف لا تسمعان نداء السائق ولا يطيع هذا الصعب الا اذا ألهمه السوط ووخرته الابر

وهذا الجواد الرديء هو صورة للجزء الاول من النفس أي أصل الاحساس والرغبة والخوف والغضب الاعمى والحب الدنيء السافل الذي يجراً على كل شيء ويفسد كل من صادفه

والجواد الآخر هو الشجاعة أي أصل الغضب الشريف والعواطف النبيلة والحب الطاهر والحماسة

واما السائق فهو العقل وهو القوة المميزه التي تعرف بها من الاشياء ما كان حقاً خالصاً دائماً . وهو يصعد الى الخالق نفسه أي علة العلل »

ان الانسانية لا أشبه بجمع عظيم من المجرمين وكل من يلقي نظرة الى ما يظهر منهم بهلع فؤاده ويتقهقر من الفزع اذ كلما عرف الانسان الانسان كلما كبرت الهاوية في عينيه ولا يشاهد الا منظرأ رهيباً حينما ردد طرفه . لان الانسان أينما سار يترك أثره ويأله من أثر مزعج مرعب

انقاد الانسان لامارته بالسوء واستبشع الحلال وهو هنيء واستمرأ الحرام وهو غاص قاتل واستحل الشرور ارضاء لرغائبه وشهواته حتى أصبح كالنمر يلهو بسفك الدماء فيفترس ولو كان بشما وباع شرفه وقدره واعتباره فأصبح ممقوتاً كالوحش الضارى

ان الالفه هي مدار الشرف فان اعوزت الانسان اعوزه الشرف مهما حاول
فلنبشها في عقول أطفالنا حتى تنمو معهم ونجري في عروقهم ولنعدل عن فكرة
الارهاب أو الترغيب في الجزاء حينما يبلغون السادسة فانها عقيدة ضارة لا تهذب
النفوس ولا تقوم الاخلاق

ابن السعادة

السعادة عقدة العقد وكبرى العضلات التي ضل في تيهها الفلاسفة والحكماء
والشعراء فتشعبت فيها أفكارهم وتضاربت آراؤهم

لا نخش أيها القارىء أن أضايقك بسرد أقوال أفلاطون وارسطو وغيرهما
من فلاسفة اليونان الاقدمين وشرحها وتحليلها أو البحث في آراء المتأخرين من
حكماء الغربيين

دعنا من الفلسفة ونظرياتها والمنطق وقضاياها واصبر الى النهاية ولا تسأم حتى
أسمعك ما علمت فيه الايام والايالي فلربما كان أصدق من خواطر الخيال وأقرب منالا
وأسهل تحقّقاً

ظن البعض ان السعادة في كثرة الاموال والاولاد والحرف والقصور والشاىحات
والخيل المطهية والجوارى والفلمان فتكالبوا على جمع المال ولو بأخس الطرق وأدني
الوسائل فأمات حب المال ضمائرهم وجعلهم غلاظ القلوب والاكباد فلم يجدوا لهم
ضميراً يحاسبهم أو وازعا من الدين يزجرهم حتى أصبحوا مكروهين ممقوتين عند
الله والناس

نرى كثيراً من الناس لا يعرفون معنى الحياة وكيف يقضونها حتى بلغ من شدة
عجزهم وضعف ارادتهم وسفاهة رأيهم أنهم يفتحرون خوفاً من الكد في سبيل
الحياة فهم في الحقيقة أخط من أحقر الحشرات اذ نرى المال متحدة متضامنة مجتهد

في الحصول على افواتها بهمة لاتعرف الملل فتقضي الربيع والصيف والخريف في ادخار القوت لتستريح في الشتاء. وتستكن في مساكنها . ومن نباهة المال انها تهرض طرفي الحبة من القمح أو الشعير لئلا تلبت من رطوبة الارض

اج القصور الشائقة وأختبر أهلها تجد فيها ألوفاً من مصائب متوارية وكروب خفية وآلام نفسانية ومتاعب جسمانية . ترى رب القصر وقد أوقعه التفاخر بمظاهر الغنى ومنافسته لجيرانه الاغنياء في هاوية الخراب والدمار وهذه عقيلته التي لم يحسن اختيارها تراه كل يوم من صفوف الرزايا والخراب ما يثقل كاهله وهؤلاء أولاده الاشقياء الذين لم يحسن تربيتهم يزيدون في آلامه ومتاعبه ، يكاد يقطع هذا المنكود سبابه من الحسرة والندامة قائلاً : لو اقتنعت بما لدي من المال وأحسننت اختيار عقيلتي وربيت أولادي تربية طيبة لكنت الآن ناعم البال مرتاح الضمير

كل من في الوجود من انسان وحيوان يكذب ويعمل طلباً للسعادة. ترى الحيوان حينما تكمل قوته يصبو الى أليفة يسكن اليها قتره يندس الجوع والظماً ويداوم البحث عنها وكثيراً ما يصادفه مزاحم عنيد فيشهر عليه حرباً عواناً ربما كانت عليه القاضية

نريد ان نستدل على طريق السعادة وحينما نجتازه نصل اليها ونعرفها حق المعرفة وهذه السبيل لها أربعة أبواب والسعادة وراء الباب الرابع . ففتاح الاول بيد الاقدار وهو ان تولد سليماً عن العاهات والافات فربما كان أبواك سليمين قوين ويعاندك القضاء . والثاني بيد أيك الذي بذر بذارك فان كان البذر جيداً والتربة خصبة سليمة نما غرسك وأنبع ثمرك والثالث بيد أيك أيضاً وهو التربية الصحيحة الراقية بجميع فروعها العلمية والدينية والاخلاقية والبدنية والرابع الحكمة ومفتاحها بيدك

أتدري ما هي السعادة الحقيقية التي ضلت في مفاوزها العقول ؟ انها لا توجد في وسط القصور الفخمة والجنان الفيحاء والقناطير المنظرة من الذهب والفضة والكواكب الحسان ولا تألف هذا الوسط المضطرب وانما هي منزوية في أعماق فؤادك ؟

السعادة أن تكون صحيح الجسم والعقل مهذباً عالماً متحلياً بمكارم الاخلاق
تقياً طيباً قانعاً بما أوتيت صبوراً على الملمات مؤدياً ما يفرضه عليك الواجب نحو
ربك ونفسك وأهلك ووطنك محبوباً عند الله والناس محاسب ضميرك قبل نومك
فتجد نفسك لا عليك ولا لك

آتاك الله ووالداك هذه السعادة والواجب يقضى ان تكلاًها بعين عنايتك
وتورثها لابنائك وتعاهدكم على أن يحذوا حذوك ويحافظوا عليها حتى يتوارثها عقبهم
أبد الآباد ويوشدوا الناس الى منهاجها القويم

خير لشقى تعمس منكود جنى على نفسه أو جنى عليه أبوه بمرض عضال ورثه
منه أو أهل تربيته حتى أصبح عالة على أمته ان لا ينقل شقاءه الى غيره ويزوج
ويجنى هذا الالم العظيم فان امتنع فتلك مروءة نادرة وطيبة عظيمة

أيها الشقي المسكين الذي جنى عليه أبوه وسدت في وجهه أبواب السعادة
وحرمه طالعه المنكود من راحة الجسم وهناءة البال تدرع بصبر أيوب وفرج
كرويك وبدد همومك بمواساة البائسين واغاثة الملهوفين وعيادة المرضى وبرهم
بقدر ماتستطيع ولو بكلمة حلوة فان ذاك سعادة عظيمة لا يفهمها إلا الكيس الحكيم
وتعز في وحدتك بقول أبي العلاء

هذا جناه أبي علي وما جنيت على أحد

